الأربعاء: 2023/11/15

التّوقيت: 13:10 – 14:20

عن بعد

الدرس رقم03: فكرة النّظم لدى المتكلِّمين وأصحاب الإعجاز قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني.

نستهلها **بالرماني المعتزلي** (386هـ) الذي يعد أشهر من تناول النظم والاعجاز في القرن الرابع الهجري، حيث تحدث عن النظم القرآني من خلال حديثه عن البلاغة في قوله: "وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان: أحدُهما بليغ، والآخرُ عييٌّ، ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غثٌّ مستكره، ونافر متكلف، وإنما البلاغة: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ".

وقد سمى الروماني النظم بالتأليف في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" يقول "دلالة الأسماء والصفات متناهية، أما دلالة التأليف فليس لها نهاية، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يقف عندها"، فبعدد نهائي من الكلمات نؤلف عددا لا نهائيا من التأليفات (نظم الجمل).

ومعنى هذا أن الإبداعية تكمن في النظم لا الألفاظ وتحدث في الرسالة السابقة عن وجوه الاعجاز حيث يرى أن البلاغة ثلاث طبقات: عليا ودنيا ووسطى، وجعل الطبقة العليا هي بلاغة القرآن، والطبقة الوسطى خصصها بطبقة البلغاء والفصحاء، والطبقة الدنيا وهي دون تلك الطبقات، والأهم في هذا التقسيم هو عنايته باللفظ والمعنى، والعلاقة القائمة بينهما عند حديثه عن التلاؤم بين اللفظ والمعنى المراد به حسن النظم.

وعليه النظم عند الرماني قائم على التلاؤم، وهو وصف استلهمه من كلام الجاحظ عندما تحدث عن تنافر الحروف والكلمات وما يجب أن يكون عليه النظم من تلاحم حتى يبدو وكأنه سبك سبكا واحدا.

أما بالنسبة **للخطابي** (388هـ) فيعد من الأوائل الذين كتبوا في الإعجاز وتحدث عن النظم بمعنى التأليف في قوله: "ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه"، حيث نصَّ على أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصحَّ المعاني.

ورد في رسالته "بيان إعجاز القرآن" على القائلين بالصرفة، "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة" لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم وإذا تأملت القرآن وجدت هذه المور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، لا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه"، إن فصاحة ألفاظ القرآن وحسن نظمه وتأليف تراكيبه اللغوية على نسق معين هي التي كانت وراء إعجازه وليس الصرفة كما زعم النظام".

وبالإضافة إلى الألفاظ والمعاني تحدث الخطابي عما سماه رسوم النظم عندما ما قال: "أما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر، أنها لجام الألفاظ وزمام المعاني، به تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان"، فثقافة المتكلم ومهارته تجعلانه يتحكم في زمام الألفاظ ومعانيها بحيث يؤلف نظما تلتحم ألفاظه وتتناسق.

تتلخَّص فكرة النظم لدى الخطابي في أن الكلام يقوم بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، والنظم عنده ليس سهلا ميسورا وإنما يحتاج إلى ثقافة ومهارة.

يعد **الباقلاني** (403هـ) من أشهر من ألف في الاعجاز في القرن الخامس وهو أشعري يشترك مع عبد القاهر الجرجاني في مرحلة التأسيس والدفاع عن الفكر الأشعري حيث قاد معركة لغوية من أجل تأسيس نظرية أشعرية في قضية البيان وإعجاز القرآن. يقول عنه شوقي ضيف: "وهو من أعلام المتكلمين على مذهب الأشاعرة، وله مصنفات

كثيرة ومجادلات مع علماء الروم، عنت لها جهود معاصريه، وكان لسنا بارعا في الجدل والاحتجاج، ومن المباحث التي عني بها مبحث الاعجاز في القرآن".

يرى الباقلاني أن الاعجاز في القرآن الكريم يكمن في نظمه الذي يخالف ما هو شائع في كلام العرب: "فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ... وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف... وليس الاعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على وزن ما أتى به النبي (صلى الله عليه وسلم)، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود، وليس لها نظم سواها".

فرصف الكلمات والتأليف بينها وترتيبها على نسق معين هو النظم، يقول الباقلاني في قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَاب ولا الإِيمَان وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاط اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُور" [الشورى: 52، 53] "فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف، كل كلمة في هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع".

وهو متأثر بفكرة الجاحظ التي ذهب فيها إلى أن الاعجاز في القرآن يعود إلى نظمه وأسلوبه العجيب الذي يخالف أساليب العرب في الشعر والنثر وما تتضمنه من أسجاع، كما تأثر بفكرة الرماني عندما جعل القرآن وحده في الطبقة العليا.

وحتى المعاني والكلمات المتباعدة تكون مؤتلفة بفعل النظم "وكما قال الباقلاني في سورة القصص: "وَابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللهُ الدّار الآخِرَة ولَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَاد فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِين" [القصص: 77] قال هي خمس كلمات متباعدة في المواقع، نائية المطارح قد جعلها النظم البديع أشد تألقا من الشيء المؤتلف الأصل، وأحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع".

يفهم من هذه الأقوال أن الباقلاني يميل في تبيان إعجاز بلاغة النظم القرآني إلى اللفظ؛ بتخيير الألفاظ المؤتلفة المرتبة على نسق محكم بصياغتها وروعة تأليفها وجدير بالإشارة في هذا السياق أن الباقلاني في دراسته للإعجاز القرآني نحى منحى يختلف عن سابقيه يقول محمد أبو موسى "والذي أغراني بالقول بأن الباقلاني يضع لبنات أساسية لدراسة الاعجاز البلاغي ويراها بديلة لبلاغة البديع التي قال بها من سبقوه ومن عاشوا معه كالرماني هو تعليقه على قوله تعالى في سورة الأنعام "فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم" [الأنعام: 96] قال انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة؟ وبمنفردها درة؟ ... ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة ... ولست أو قل إنه شمل الأطباق المليح، والايجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل ... وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة، أو خطبة، أو وجه قصيدة، أو فقرة، فإذا ألفت ازدادت به حسنا وإحسانا، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا".

إن الباقلاني لا يختلف عن ما سبقوه في تفسير النظم، فهو يعلي من شأن الألفاظ ويجعل ائتلافها كفيل بجعل الكلام يتصف بالنظم، والنظم القرآني عنده مختلف عن كل جميع وجوه النظم المعتادة، ويرى أن الإعجاز ليس في نفس الحروف إنما هو في نظمها وإحكام رصفها، بمعنى التنسيق والائتلاف بين الكلم، وذلك في قوله عن الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن: "والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحدِّ الذي يعلم عجز الخلق عنه"

أما عند **القاضى عبد الجبار** (410هـ) هو قاضي قضاة الدولة البويهية بإيران، وأكبر أعلام المعتزلة في عصره له مصنفات كثيرة أشهرها كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، وقد خصص الجزء السادس عشر لبحث مسألة الاعجاز القرآني ودلالة القرآن على نبوة الرسول وأن مرتبته الرفيعة في البلاغة تخرجه عن العادة كما جعل

فصلين قصيرين لموضوع البلاغة أولهما عرض فيه رأي أستاذه أبي هاشم الجبائي في الفصاحة وعقب عليه، وعرض في الثاني رأيه الخاص في فصاحة الكلام".

بالنسبة للتعقيب على أبي هاشم الجبائي الذي اعتبر الفصاحة في اللفظ، قال شيخنا أبو هاشم: "إنما سكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين"، فإن عبد الجبار أحس أن في فكرة أستاذه نقصا لأنه أغفل صورة تركيب الكلام وهي أساسية في بلاغة العبارة، فقال "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع ... ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ... على أن نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عنده الألفاظ التي يعبر بها عنها. فإذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس إلا الابدال (الاختيار) الذي به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذي يختص الموقع أو الحركات التي تختص الاعراب فبذلك تقع المبيانة (بين الكلام)".

وعلى ضوء هذا القول فالفصاحة يحددها طريقة نظم الألفاظ في تركيب معين بدليل أن الألفاظ ذاتها تفقد فصاحتها في تعبير آخر، ولا تحددها الألفاظ المفردة المعزولة عن سياق استعمالها أو المعاني. وبعبارة أخرى فالفصاحة تتجلى في النظم وقد سماه الضم على طريقة مخصوصة تمثل الأسلوب البليغ أو طريقة أداء التعبير التي تقوم على اختيار مواقع الكلمات ومراعاة ترتيبها ومختلف التراكيب النحوية التي يجب معرفتها واتباعها.

فالنظم إذا هو الذي يعلي شأن الكلمة ودونه تبقى الكلمة لا قيمة لها "ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في غيره ... وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظ وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه"، المتعلقة بالتركيب لأن ما قبل الكلمة

وما بعدها يؤثران في فصاحتها وإظهار قيمتها "العبرة بمكان الكلمة من النظم وارتباطها بما يجاورها من الكلمات".

وبناء على هذه الأهمية فإن النظم (الضم) هو المجال الذي تتحدد به مراتب الابداع وتتفاوت فيه القدرات الفنية، يقول عبد الجبار: "إن جملة الكلمات وإن كانت محصورة، فتأليفها يقع على طرائق مختلفة، فتختلف لذلك مراتبه في الفصاحة، وما هذا حاله فالتحدي فيه، لأن فيه مقادير معتادة تصبح فيها زيادات في الرتب غير معتادة". فرغم قلة الألفاظ ومحدوديتها إلا أن النظم يوفر إمكانية تأليف تعابير كثيرة غير محدودة مختلفة في طرائق صياغتها ومراتبها.

يمكن القول إن القاضي عبد الجبار دافع عن فصاحة اللفظة في ضوء ضمها ونظمها مع كلمات أخرى من خلال موقعها وطريقة أداء الكلام وما تتضمنه من علاقات نحوية وتراكيب لغوية وهي القضايا التي مهّدت السبيل لعبد القاهر الجرجاني الذي فصل، الحديث عنها وهو يؤسس نظرية النظم في دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة.

إذن فكرة النظم عند القاضي عبد الجبار، تتلخَّص في أن الفصاحة لا تظهر في الكلمة المفردة إلا إذا ضُمَّت إلى غيرها في تركيب، على طريقة مخصوصة من مراعاة المعنى النحوي، وحركات الإعراب، ودلالة السياق، فقد زاد المصطلح وضوحا حيث يرى أن اللفظة لا تكون لها قيمة خارج التركيب، ورأى أن الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقارنها.